النسويَّة والبيئة

الدكتور مصطفى النشار[1]

مستخلص:

استُعمل مصطلح النسويَّة (Feminism) لأوَّل مرّة عام 1895م، ليعبِّر عن تيار ترفده اتّجاهات عدّة ويتشعّب إلى فروعٍ كثيرة. وقد تطوّرت هذه الحركة في القرن العشرين، وكانت عميدتها الفيلسوفة الفرنسيَّة سيمون دي بوفوار وكتابها «الجنس الثاني» عام 1949م، حينما أعلنت فيه أنَّ المرأة لا تولد امرأة، بل تصبح امرأة، إشارةً إلى الدور الكبير الذي يقوم به المجتمع في صياغة وضعها كأنثى، وارتبطت النسويَّة الجديدة بما بعد الحداثة وأصبح منطلقها الأساس هو نقد المركزيَّة ورفضها، مركزيَّة النموذج الذكوريّ للإنسان التنويريّ، الحداثيّ العاقل، الوجه الآخر للمركزيَّة الأوروبيَّة ومركزيَّة الحضارة الغربيَّة. وقد تفرّع عنها ما يسمّى بالأيكولوجيا النسويَّة التي أرادت أن تلفت الانتباه إلى إمكان أن تُحدِث النساء ثورةً أيكولوجيَّة؛ موقف فحواه أنَّ ثمّة ارتباطات مهمَّة تاريخيَّة وتجريبيَّة، رمزيَّة ونظريَّة، بين الهيمنة على النساء وبين الهيمنة على الطبيعة، وأنَّ فهم هذه الارتباطات يُمثِّل أمرًا جوهريًّا لكلٍّ من النسويَّة والأخلاق البيئيَّة.

(1) أستاذ الفلسفة في كلِّيَّة الآداب في جامعة القاهرة، مصر.

كلمات مفتاحيَّة:
النسويَّة، الأيكولوجيا النسويَّة، المركزيَّة الأوروبيَّة، التحيُّز الذكوريّ، المنظور الغربيّ للتنمية، سيمون دى بوفوار، فرانسوا دوبون، فاندانا شيفا، ليندا شيفرد، كارين وارين.

مقدّمة:

النسويَّة -بالطبع- نسبة إلى النساء، وهي تطلق بشكلٍ عامّ على مجموعةٍ مختلفةٍ من النظريَّات الاجتماعيَّة والبيئيَّة والحركات السياسيَّة والفلسفات الأخلاقيَّة التي تحرّكها دوافع متعلّقة بالمرأة وقضاياها. ويتَّفق فلاسفة النسويَّة (أو الأنثويَّة) عمومًا، سواء أكانوا نساءً أم رجالًا، على «أنَّ الهدف النهائيّ هو القضاء على كلِّ أشكال القهر المتّصل بالنوع الجنسيّ؛ ليسمح المجتمع للجميع نساءً ورجالًا بالنموّ والمشاركة في المجتمع بأمانٍ وحرِّيَّة»[1].

تُمثِّل النسويَّة بشكلٍ عامّ «كلّ جهدٍ نظريٍّ أو عمليٍّ يهدف إلى مراجعة واستجواب أو نقد أو تعديل النظام السائد في البنيات الاجتماعيَّة الذى يجعل الرجل هو المركز، هو الإنسان، والمرأة جنسًا ثانيًا أو آخر في منزلة أدنى، فتفرض عليها حدودًا وقيودًا، وتمنع عنها إمكانات للنماء والعطاء، لأنَّها امرأة فقط، ومن ناحيةٍ أخرى تبخس خبرات وسمات لأنَّها أنثويَّة فقط؛ لتبدو الحضارة في شتّى مناحيها إنجازًا ذكوريًّا خالصًا يُؤكّد ويُوطّد سلطة الرجل وتبعيَّة أو هامشيَّة المرأة، وقد بدأت الحركة النسويَّة في الفكر الغربيّ منذ القرن التاسع عشر حتى صيغ مصطلح النسويَّة Feminism لأوَّل مرَّة عام 1895م ليعبِّر عن تَّيار ترفده اتِّجاهات عدَّة ويتشعَّب إلى فروعٍ عديدة»[2].

وقد تطوَّرت هذه الحركة في القرن العشرين وكانت عميدتها الفيلسوفة الفرنسيَّة سيمون دى بوفوار وكتابها «الجنس الثاني» عام 1949م، حينما أعلنت فيه أنَّ المرأة لا تولد امرأة، بل تصبح امرأة، إشارةً إلى الدور الكبير الذي يقوم به المجتمع في صياغة وضعها كأنثى. ومن هنا عُدَّت دى

(1) انظر: الموسوعة الحرَّة (ويكيبيديا) Wikipedia.org/wiki، مادَّة «أنثويَّة».
(2) شيفرد، ليندا جين: أنثويَّة العلم، ترجمة: يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2004م، العدد 306، ص11.

بوفوار الأمّ الكبرى للفلسفة النسويَّة المعاصرة. وارتبطت النسويَّة الجديدة الآن بما بعد الحداثة وأصبح منطلقها الأساس نقد ورفض المركزيَّة، مركزيَّة النموذج الذكوريّ للإنسان التنويريّ، الحداثيّ العاقل، الوجه الآخر للمركزيَّة الأوروبيَّة ومركزيَّة الحضارة الغربيَّة. وفي تجسيدٍ لمرمى التصويب لديهم اصطنعوا مصطلح «مركز العقل الذكوريّ «Pallogocentrism» ليمثّل القيم الذكوريَّة المتسيِّدة المهيمنة على الحضارة، وكانت وسيلة الرجل الأبيض لقهر العالمين وإحداث المصائب والويلات التي تعاني منها الحضارة الإنسانيَّة في أركان العالم الأربعة والتي تتلخَّص في أنَّ مركزيَّة العقل الذكوريّ الغربيّ قد قهرت ثالوث الأطراف؛ قهرت المرأة وقهرت الطبيعة وقهرت شعوب العالم الثالث. ومن هنا خسرت الحضارة الإنسانيَّة والتجربة البشريَّة خسرانًا كبيرًا، وقد آن أوان العمل على وقف نزيفه. ومن هذه الزاوية تبدو النسويَّة الجديدة من أهمّ تيَّارات الفكر الغربيّ المعاصر؛ لأنَّها فلسفة للمرأة بقدر ما هي فلسفة للبيئة، بقدر ما هي فلسفة لتحرُّر القوميَّات[1].

ولعلَّ ما يعنينا من تيَّارات الفكر النسويَّة هذه، ما يطلق عليه «الأيكولوجيَّة النسويَّة»، وكما أنَّه لا توجد نسويَّة واحدة بل نسويَّات، أيضًا ليس هناك أيكولوجيَّة واحدة. فمصطلح النسويَّة الإيكولوجيَّة يعدّ مظلّة تغطّي تنوُّعًا من المواقف التي تمتدّ جذورها إلى نظريَّاتٍ وممارساتٍ نسويَّةٍ مختلفة وأحيانًا متنافسة، إنَّها تعكس إدراكاتٍ مختلفة لطبيعة المشكلات البيئيَّة المعاصرة وحلولها.

أوَّلًا: دعاوى النسويَّة الأيكولوجيَّة:

على الرغم من هذه المواقف المتنوعة والمختلفة، فإنَّ ثمَّة اتِّفاقًا بين النسويِّين الأيكولوجيِّين على ثلاث دعاوى رئيسة، هي:

(1) شيفرد، أنثويَّة العلم، م.س، ص13-14.

1. إنَّ ثمّة ترابطات دالّة على الهيمنات غير المبرّرة على النساء وعلى الآخر البشريّ عمومًا، كالمهمَّشين والمستغَلّين والمسيطَر عليهم، وكذلك على غير البشر من الحيوانات والنباتات والطبيعة.
2. إنَّ فهم الترابطات بين النساء -الآخر البشريّ- والطبيعة شأنٌ مهمٌّ بالنسبة إلى كلٍّ من النسوية والمذهب البيئيّ والفلسفة البيئيَّة.
3. إنَّ المشروع المركزيّ للنسويَّة الأيكولوجيَّة يتمثَّل في استبدال بنيات الهيمنة غير المبرّرة وإحلال بنيات وممارسات عادلة حقًّا محلّها[1].

تستند النسويَّة الأيكولوجيَّة على ذلك الاتِّحاد القديم بين النساء والطبيعة أو بين الطبيعة والنساء، وقد عبّرت عن هذا الاتِّحاد القديم حركتان اجتماعيَّتان حديثتان رصدتهما كارولين ميرشانت[2]، هما: حركة تحرير النساء التي رمز إلى انطلاقها كتاب بيت فريدان[3] المثير للجدل Feminine Mgstique عام 1963م، والحركة البيئيَّة التي نشأت تدريجيًّا في عقد الستينات وشدّت الانتباه في احتفالات يوم الأرض عام 1975م. لقد كان المشترك بين الحركتين هو منظور المساواة؛ حيث نضال النساء حتّى يحرّرن أنفسهن من القيود الثقافيَّة والاقتصاديَّة التي أبقتهن في منزلةٍ

(1) وارين، كارين ج.: مقدّمة للنسويَّة الأيكولوجيَّة، ضمن كتاب: زيمرمان، مايكل: الفلسفة البيئيَّة من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذريَّة، ترجمة: معين شفيق رومية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2006م، العدد 333، ج2، ص10-11.

(2) كارولين ميرشانت Karolyn Merchant ولدت في نيويورك عام 1936م، وهي أستاذة الفلسفة البيئيَّة والتاريخ البيئيّ والأخلاق البيئيَّة في قسم الحفاظ ودراسات الموارد البيئيَّة في جامعة كاليفورنيا، أصدرت العديد من المؤلَّفات النسويَّة الأيكولوجيَّة منها:

1- The Death of Nature: Women Ecology and the Scientific REvolution (1980).

2- Ecological Revolution.

[انظر: wikipedia.org/wiki/Carolyn-merchant.].

(3) بيتى فريدان Bety Fredan: هي كاتبة أمريكيَّة ناشطة في مجال الحركة النسويَّة، ولدت في 2 فبراير 1921م، وتوفيت في 4 فبراير 2006م، ويؤرَّخ لها كرائدة للموجة الثانية من النسويَّة الأمريكيَّة في القرن العشرين من خلال كتابها:

The Feminine Mystique (1963).

وقد أسَّست وانتخبت أوَّل رئيسة للمنظّمة القوميَّة للمرأة عام 1966م، والتي استهدفت العمل على المساواة والمشاركة بين المرأة والرجل في كلّ شيءٍ في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة.

[انظر: Wikipedia.org/wiki/Betty friedan].

ثانويَّةٍ بالنسبة إلى الرجال في المجتمع الأمريكيّ. وقد شدَّدت البيئيّات منهنّ من خلال هذا على التحذير من العواقب الوخيمة غير القابلة للمراجعة الناتجة عن الاستغلال البيئيّ المستمرّ. إنَّ النسويَّة الأيكولوجيَّة تعيد إلى الأذهان مرَّة أخرى تلك الهويَّة القديمة للطبيعة بوصفها أمًّا حاضنة، وتربط تاريخ النساء مع تاريخ البيئة والتغيُّر البيئيّ؛ فالأرض الأنثى كانت فكرةً محوريَّة في الكوزمولوجيا العضويَّة التي قوَّضتها الثورة العلميَّة وثقافة السوق في بواكير أوروبا الحديثة. وقد أيقظت الحركة البيئيّة من جديد الاهتمام بالقيم والمفاهيم المرتبطة تاريخيًّا بالعالم العضويّ ما قبل الحديث؛ فلقد كان محوريًّا في النظرية العضويَّة التماهي بين الطبيعة، وعلى الأخصّ الأرض والأمّ الحاضنة، الأنثى اللطيفة المعطاء التي تلبّي حاجات النوع البشريّ في كونٍ منظّمٍ ومخطّط.. ومع تقدُّم الثورة العلميَّة الحديثة في مكننة النظرة إلى العالمِ وعقلنتها بدأت صورة الأمّ الحاضنة تتلاشى تدريجيًّا، لقد جرى منذئذ تقويض الذهنيَّة ذات التوجّه العضويّ التي لعبت الأنثى فيها دورًا مهمًّا واستبدلت بالذهنيّة ذات التوجّه الآليّ التي إمّا حذفت المبادئ الأنثويّة أو استخدمتها بأسلوبٍ استغلاليّ حتَّى غدت الثقافة الغربيَّة آليَّةً على نحوٍ متزايدٍ في القرن السابع عشر، فقهرت الأرض الأنثى وروح الأرض العذراء بواسطة الآلة.

لقد كانت الطريقة العلميَّة الجديدة -المتوافقة مع التقنيَّة الآليَّة التي بدأت مع أورجانون فرنسيس بيكون، ومقال عن المنهج لديكارت، وما حدث بعدهما من تطوُّرات علميَّة وممارسات فعليَّة- وراء هذه السيطرة البشريَّة ذات النزعة الذكوريَّة على الطبيعة وقهرها.

وتُعدُّ النسويَّة الأيكولوجيَّة في واقع الحال محاولةً للعودة إلى الأصل، العودة إلى إيقاظ الذهنيَّة الخاصَّة بالاتِّحاد بين الطبيعة والأنثى بقدر الإمكان، وذلك عبر معارضة النظريَّة المضادَّة، نظريَّة استعباد الطبيعة والنساء، من ثمّ فقد ارتبطت في الحركة النسويَّة الحديثة الدعوة إلى

المحافظة على الطبيعة مع حركة تحرُّر النساء؛ إذ تشكّلت الحركة النسويَّة القويَّة التي بدأت في عام 1842م في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة والداعية إلى حقّ النساء في الاقتراع، مع الحركة النسويَّة الداعية إلى الحفاظ على الطبيعة التي تأسَّست من المنظّمات النسويَّة التابعة لاتِّحاد النوادي النسويَّة عام 1890م، وكلاهما دعت وألحّت على إصدار التشريعات الحاضّة على المحافظة على نظافة البيئة ونظافة الماء والهواء، إنَّ الأرض العليلة بل و«الميتة والمتعفّنة» يمكن في الأمد الطويل استرداد صحّتها فقط عن طرق عكس مجرى التيّار الرئيس للقِيَم والسياسات لتصبح في النهاية سياسات تتبنَّى أساليب اجتماعيَّة جديدة تُعزِّز نوعيَّة البيئة وتحافظ عليها وتعود إلى أساليب الحياة البسيطة وتستخدم التقنيَّات الليّنة غير الملوثة، فالأيكولوجيَّة النسوية إذًا تُمثِّل دعوةً إلى التوزيع المستقبليّ للطاقة والموارد بين المجتمعات وفق مبدأ التكامل بين الكائنات البشريَّة والمنظومات البيئيَّة الأخرى[1].

وإذا ما أردنا أن نعرف متى استخدم مصطلح النسويَّة الأيكولوجيَّة تحديدًا، فإنَّ ذلك قد حدث على يد فرانسوا دوبون[2] عام 1974 حينما أرادت أن تلفت الانتباه إلى إمكان أن تحدِث النساء ثورةً أيكولوجيَّةً، وأشارت حينئذٍ إلى موقفٍ فحواه أنَّ ثمَّة ارتباطات مهمَّة تاريخيَّة وتجريبيَّة، رمزيَّة ونظريَّة بين الهيمنة على النساء والهيمنة على الطبيعة، وأنَّ فهم هذه الارتباطات يُمثّل أمرًا جوهريًّا لكلٍّ من النسويَّة والأخلاق البيئيَّة[3]. ومهما يكن الأمر فإنَّ النسويَّة الأيكولوجيَّة تُعدُّ حركةً لإنهاء الجور الجنسيّ، حيث تتضمّن إلغاء كلِّ العوامل التي تسهم في الهيمنة أو الإخضاع المنهجيّ المتواصل

(1) انظر: ميرشانت، كارولين: «موت الطبيعة»، ضمن كتاب: زيمرمان، الفلسفة البيئيَّة، م.س، ص33-50.

(2) فرانسوا دوبون Francoise d'eaubonne: فيلسوفة فرنسيَّة ولدت في باريس 21 مارس 1920م وتوفيت في 3 أغسطس 2005م، وهي تنتمي إلى الحركة النسويَّة الفرنسيَّة، وهي صاحبة مصطلح الإيكولوجيا النسويَّةEcofeminism عام 1974م، وقد كتبت حوالى 50 عملًا أكثرها من الروايات والمقالات ودواوين الشعر.

(3) وارين، كارين ج.: قوَّة وقواعد النسويَّة الأيكولوجيَّة، م.س، ص95.

المسلّط على النساء. وتكون التقنيَّة نسويَّةً عندما تسهم بطريقةٍ ما في فهم الجور الواقع على النساء؛ فالمساواة في الأجر والعمل وإنتاج الغذاء جميعها قضايا نسويَّة، وكلَّما كان فهمها يسهم في فهم الاستغلال المستمرّ للنساء أو استعبادهنّ كانت نسويَّةً؛ وكذلك فإنَّ نقل المياه والبحث عن حطب الوقود قضايا نسويَّة حيثما كانت، وكلَّما كانت مسؤوليَّة النساء عن هذه المهامّ تسهم في حرمانهنّ من المشاركة الكاملة في اتِّخاذ القرار أو من إنتاج الدخل أو من المراتب العليا التي يشغلها الرجال. ومن هنا فإنّ قضايا التدهور البيئيّ والاستغلال البيئيّ قضايا نسويَّة؛ لأنَّ فهمها يسهم في فهم الجور الواقع على النساء[1]. إنَّ النسويَّة الأيكولوجيَّة تقوم على مقاومة الجور سواء الجور القائم على التمييز الجنسيّ بين الرجال والنساء أو مقاومة الجور القائم على التمييز ضدّ الطبيعة.

ثانيًا: أسس الإيكولوجيا النسويَّة:

تقوم الإيكولوجيا النسويَّة على أساسين يرتبطان ليشكّلا الالتزام الأساس للأخلاق النسويَّة عمومًا وما ينسحب منها على الأخلاق البيئيَّة:

1. **أوَّلهما:** نقد التحيّز الذكوريّ ورفض المنظور الغربيّ للتنمية باعتباره منظورًا ذكوريًّا متميِّزًا.
2. **وثانيهما:** تطوير أخلاق غير متميِّزة ذكوريًّا وفق مبادئ أنثويَّة محدّدة تلتحم بالطبيعة وتنتقد كلّ ما هو طبيعيّ.

ويستند هذان الأساسان على مسألةٍ ضروريَّةٍ أدركتها الحركة النسويَّة منذ بدايتها وحتَّى تطوّراتها المعاصرة، وهي التلقّي والإنصات إلى الطبيعة، والذي عبّرت عنه خير تعبيرٍ ليندا شيفرد[2] في كتابها «أنثويَّة العلم» حيث

(1) وارين، كارين ج.: قوَّة وقواعد النسويَّة الأيكولوجيَّة، م.س، ص96.
(2) ليندا جيه شيفرد Linda Jean Shepherd: عالمة أمريكيَّة معاصرة، حاصلة على الدكتوراه في الكيمياء

قالت: «إنَّ التلقّي واحد من خصائص الطراز البدائيّ للأنثويَّة. وهذا التلقّي الأنثويّ يهب العلم انفتاحًا على الإنصات للطبيعة والاستجابة لها فيما يشبه الحوار أو التشارك مع الطبيعة»[1]. إنَّ إهمال هذا الإنصات للطبيعة والاستجابة لها هو ما سبّب ويسبّب الكثير من الكوارث العلميَّة؛ خذ مثلًا ما قاله أحد العلماء عن أنَّه عادةً ما تدخل المعطيات المأخوذة من الطبيعة إلى الآلات والأجهزة الحاسوبيَّة ولا تراها عين الإنسان، وضرب مثلًا على ذلك بقوله: كيف أعاق «العلم الجسيم» سبيل اكتشاف ثقب الأوزون. فلقد أُنفِقَت أموال طائلة على قياسات القمر الصناعيّ والبالون والطائرة ونماذج كمبيوتريَّة باهظة الثمن للجزء الأعلى من الغلاف الجويّ (الاستراتو سفير) تحسّن معها فهمنا للغلاف الجويّ إلى حدٍّ بعيد. وللأسف! كان مبرمجو الكمبيوتر على يقينٍ من أنَّهم عرفوا كلّ ما يخصّ الاستراتوسفير، حتَّى برمجوا أجهزة القمر الصناعيّ بحيث ترفض المعطيات التي تختلف جوهريًّا عن نموذج التنبّؤات. طالعت الأجهزة ثقب الأوزون، ولكن أولئك المسؤولين عن التجربة تجاهلوه قائلين بانفعال: «لا تزعجنا بوقائع نموذجنا يعرف أفضل» وخلال بعثة في الأنتركتيكا رأى ثقب الأوزون ملاحظان وحيدان استعملا أداة رخيصة الثمن عتيقة الطراز[2].

وهكذا ثمَّة أمثلة كثيرة على عدم الإنصات إلى الطبيعة والجري وراء التأكيد على افتراضاتنا ونتائجنا الخاطئة، والخلاصة أنَّ النسويَّة والأنثويَّة تدعونا باستمرار إلى الإنصات العميق للطبيعة؛ لأنَّ هذا «يدفع العلم إلى مراجعة توصيفاته العميقة»[3]. إنَّها دعوة من «أصدقاء الكون» للتواصل

الحيويَّة من جامعة بنسلفانيا ستيت. عملت باحثةً وعالمةً ومديرة بحوث في قطاع أبحاث الرعاية الصحيَّة لصناعات التكنولوجيا الحيويَّة. درست علم نفس كارل يونج على مدى خمسة عشر عامًا قبل أن توظّفه في دراستها لفلسفة العلم النسويَّة، وقد انتقلت إلى مدينة سياتل بولاية واشنطن، ومنحتها حكومة الولاية جائزةً عن كتابها أنثويَّة العلم الصادر 1993م، ولها -أيضًا- كتاب الأنفاس الحلوة للنباتات. (انظر: شيفرد، أنثويَّة العلم، الترجمة العربيَّة ليمنى الخولي، م.س، ص395).

(1) شيفرد، أنثويَّة العالم، م.س، ص111.

(2) م.ن، ص118-119.

(3) م.ن، ص123.

المتبادل والاعتماد المتبادل حتَّى نُعيد مباراة العلم من (كسب/ خسارة) إلى (كسب/ كسب)[1].

إنَّ الإنصات إلى الطبيعة يعني عند النسويِّين بالضرورة مراجعة أسس التنمية الذكوريَّة الغربيَّة المبنيَّة -في نظر فاندانا شيفا[2]- على افتراضاتٍ زائفةٍ ومنحازةٍ ذكوريًّا مثل أنَّ الطبيعة غير منتجة، والزراعة العضويَّة القائمة على دورات التجدّد في الطبيعة تعني العوز (الفقر)، والمجتمعات النسويَّة والقبليَّة الفلاحيَّة الملتصقة بالطبيعة غير منتجة أيضًا، ليس لأنَّه ثبت أنَّهم بتعاونهم ينتجون بضائع وخدمات أقلّ لسد الحاجات، بل بموجب الزعم بأنَّ الإنتاج هو ما يتمّ بتوسّط تقنيّات الإنتاج السلعيّ حتّى لو أنّ هذه التقنيّات تدمّر الحياة[3].

ولعلّ السؤال الآن: إذا ما أنصتنا مع دعاة النسويَّة إلى الطبيعة ووافقنا معهم على رفض المنظور الذكوريّ التمييزيّ الغربيّ للتنمية، فما هي يا ترى المبادئ الأخلاقيَّة والأيكولوجيَّة التي تميّز فلسفتهم الأخلاقيَّة عمومًا وفلسفتهم البيئيَّة بوجهٍ خاصّ؟!

(1) شيفرد، أنثويَّة العالم، م.س، ص251.

(2) فاندانا شيفا VAndana Shiva: ولدت بالهند فى 5 نوفمبر 1952م، وهي عالمة وأكاديميَّة وباحثة وناشطة بارزة حصلت على دكتوراه الفلسفة من جامعة غرب أونتاريا بكندا، وهي تعمل مديرة مؤسَّسة البحث حول العلم والتقنيَّة والأيكولوجيا فى ديهران بالهند. تعتبر من المنتقدين بشدَّة للزراعة متعدّدة الجنسيّة والتقنيَّات الإنتاجيَّة والتنمية. ولها مؤلَّفات عدَّة، أبرزها:

- الحصاد المسروق: اختطاف الإمدادات الغذائيَّة العالميَّة Stolen Harvest: The Hijacking- (of the Global Food Supply (2000
- عنف الثورة الخضراء - The Violence the Green Revolution) 1992)
- القرصنة البيولوجيَّة: نهب الطبيعة والمعرفة: Biopiracy: The Plunder of Nature and Knowledge
- حروب المياه والخصخصة والتلوث والريح: Water Wars; Privation pollution and proft (2002))
- البقاء على قيد الحياة Staying A Live
- صنع السلام مع الأرض Marking peace with the Earth) 2013).

(انظر: Wikipedia.org/wiki/vandana Shiva).

(3) نقلًا عن: وارين، مقدّمة النسويَّة الإيكولوجيَّة، م.س، ص15.

ثالثًا: مبادئ الأخلاق النسويَّة:

لقد حاولت كارين ج وارين[1] حصر المبادئ العامَّة للأخلاق النسويَّة بدايةً في ما أسمته الشروط الجديَّة لأخلاق النسويَّة، وهي ثمانية شروط[2]:

1. إنَّ الأخلاق النسويَّة تهدف إلى إلغاء التمييز والتحيّز الجنسيّ، وبما أنّ التمييز الجنسيّ يرتبط مفهوميًّا وعمليًّا بالعنصريَّة والطبقيَّة والتمييز ضدّ الطبيعة، فإنَّ الأخلاق النسويَّة لا بدّ أن تكون ضدّ هذه التمييزات ومعارضةً لأيِّ نزعةٍ تمييزيَّةٍ تفترض مسبقًا منطق الهيمنة أو تعزّزه.
2. الأخلاق النسويَّة أخلاق سياقيَّة، والأخلاق السياقيَّة هي تلك التي ترى الخطاب والممارسة الأخلاقيَّين ناجمَين عن أصوات الناس الموجودِين في ظروفٍ تاريخيَّةٍ مختلفة، إنَّها تقوم على نموذجٍ من أصواتٍ مختلفةٍ لأناسٍ موجودين في ظروفٍ مختلفة. ومن هنا فعندما تكون الأخلاق السياقيَّة نسويّة، فهي إذًا تلك الأخلاق التي تولي مكانةً محوريَّةً لأصوات النساء.
3. إنَّها تولي أهمِّيَّةً محوريَّةً لتنوُّع أصوات النساء؛ إذ إنَّها ترفض الافتراض المسبق بوجود «صوت واحد» يتحكَّم في تعيين القيم الأخلاقيَّة والاعتقادات والمواقف السلوكيَّة، ومن ثمّ فهي تُعدُّ أخلاقًا تعدُّديَّة بنيويًّا وليست واحديَّة أو اختزاليَّة.
4. إنَّها تُعدُّ أخلاقًا قيد التشكُّل، ومن ثمّ فهي ربّما تتغيّر عبر الزمن وإنْ

(1) كارين ج وارين :Karen J. Warren فيلسوفة أمريكيَّة ولدت في 10 سبتمبر 1947م، وهي متخصِّصة في الفلسفة الغربيَّة، وتعمل أستاذة في كلِّيَّة ماك أليستر في سانت بول منيسوتا، وقد بدأ اهتمامها الأكاديميّ بالأخلاق البيئيَّة منذ السبعينات من القرن العشرين عندما أنجـزت بحثها للدكتوراه عن المنزلة القانونيَّة للمصنوعات الطبيعيَّة غير البشريَّة. وقد شاركت في تحرير خمسة كتب في فلسفة النسويَّة الأيكولوجيَّة والأخلاق البيئيَّة ودراسات السلام. وقد نشرت خمسين مقالة في قضايا الأخلاق النسويَّة الأيكولوجيَّة والفكر النقديّ.

انظر: Wikipedia.org/wiki/Karen J.Warren؛ و: زيمرمان، الفلسفة البيئيَّة، م.س، ص357.

(2) انظر هذه الشروط الجديدة للأخلاق النسويَّة في: وارين، قوَّة وقواعد النسويَّة الإيكولوجيَّة، م.س، ص110-112.

كانت ككلٍّ النظريَّات الأخلاقيَّة تستند إلى بعض التعميمات، وهذه التعميمات تعني هي الأخرى بإدراك وتقدير الأصوات المختلفة المنبثقة عن الحالات الأخلاقيَّة المختلفة الناتجة عن مجموعةٍ من الظروف الاجتماعيَّة والتاريخيَّة والاقتصاديَّة بما في ذلك ظروف العرق والطبقة والسن والتوجُّه العاطفيّ.

5. بما أنَّ الأخلاق النسويَّة سياقيَّة، وتعدُّديَّة بنيويًّا، وقيد التشكّل، فإنَّها تكفل تنوّع أصوات النساء وتُساعد على تقليل التحيُّز التجريبيّ إلى الحد الأدنى، مثل التحيُّز الناتج عن التعميمات الخاطئة أو الزائفة القائمة على القولبة وعلى عدد ضئيل من الأمثلة أو على أمثلةٍ مشوّهة.

6. إنَّ الأخلاق النسويَّة لا تقوم بأيِّ محاولةٍ لتقديم وجهة نظر «موضوعيَّة»؛ لأنَّها تفترض أنَّه في الثقافة المعاصرة لا توجد مثل هذه الموضوعيَّة، ودعوتها إلى عدم التحيُّز لا تعني الدعوة إلى الموضوعيَّة أو الحياديَّة، لكنَّها تفترض العكس، حيث إنَّها يمكن أن تتحيَّز تحيُّزًا أفضل بالتحيُّز إلى أصوات أشخاصٍ مضطهدين، وهذا يعني أنَّها تُفضِّل في هذه الحالة التحيُّز على الحياديَّة؛ حتى لا تستبعد تلك الأصوات.

7. تُوفِّر الأخلاق النسويَّة مكانةً محوريَّةً لقِيَم كانت نمطيًّا غير ملحوظةٍ أو مهملة أو محرّفة في الأخلاق التقليديَّة؛ كقيمة الرعاية، والحبّ، والصداقة، والثقة، والملاءمة. وهذا لا يعنى الاستبعاد التامّ لاعتبارات الحقوق أو القواعد أو المنفعة.

8. تتضمّن الأخلاق النسويَّة إعادة تعقّل الماهيَّة البشريَّة والهدف الذي من أجله ينخرط البشر في اتِّخاذ القرار الأخلاقيّ، فهي ترفض -على سبيل المثال- تحديد ماهيَّة البشريّ أو الطبيعة البشريَّة بشكلٍ مستقلٍّ عن أيِّ سياقٍ تاريخيّ، فأدقّ فهم لكلِّ ما هو بشريّ يختصّ بالطبيعة البشريَّة، ومن ثمّ يكون السلوكُ البشريّ جوهريًّا من خلال شبكة العلاقات التاريخيَّة والملموسة.

رابعًا: المبادئ العامّة للأيكولوجيا النسويّة:

تنسحب هذه الشروط الثمانية للأخلاق النسويَّة على نظرةِ الحركةِ النسويَّة لفلسفة البيئة. ومن ثمّ فإنّ خصائص النسويَّة الإيكولوجيَّة هي الأخرى لدى كارين ج وارين ثمانية منبثقة عن هذه الشروط والخصائص العامّة للأخلاق النسويّة، وهي[1]:

1 - خصائص الأخلاق النسويَّة:

أ. النسويَّة الأيكولوجيَّة تُعارض في جوهرها التمييز ضدّ الطبيعة، ومن ثمّ فهي ترفض أيّ أسلوبٍ في التفكير أو السلوك إزاء الطبيعة غير البشريَّة يعكس منطق الهيمنة وقيمها ومواقفها.

ب. إنَّ النسويَّة الأيكولوجيَّة أخلاق سياقيَّة، بمعنى أنَّها تستبعد المفهوم التقليديّ للأخلاق على أنَّها قواعد وحقوق أو مبادئ محدَّدة سلفًا لصالح مفهومٍ جديدٍ للأخلاق يقوم على النظر إلى العلاقات بين الكائنات المختلفة في سياقاتها المتعدِّدة؛ إذ إنَّه بالنسبة إلى النسويّ الأيكولوجيّ يكون الاهتمام المحوريّ «هو ما يكونه الفاعل الخلقيّ في علاقته مع الآخر، وليس مجرَّد أنَّ الفاعل الخلقيّ هو فاعل خلقيّ أو أنَّه ملزم من قبل الحقوق أو الواجبات أو الفضيلة أو المنفعة بالسلوك بطريقةٍ معيّنة».

ج. النسويَّة الأيكولوجيَّة تعدُّديَّة بنيويًّا بما أنها تفترض مسبقًا الاختلاف وتحافظ عليه، سواء أكان اختلافًا بين البشر أم بينهم وبين عناصر الطبيعة الأخرى، فالبشر يعدّون أعضاء في مجتمعٍ أيكولوجيٍّ من بعض الوجوه، وهم مختلفون عنه من وجوه أخرى، ومن ثم فإنّ انتباه النسويَّة الأيكولوجيَّة إلى العلاقات والمجتمع لا يُعدُّ محوًا للاختلاف، بل هو إقرارٌ به.

(1) انظر: وارين، قوَّة وقواعد النسويَّة الإيكولوجيَّة، م.س، ص113-117.

د. تعيد النسويَّة الأيكولوجيَّة النظريَّة إلى الذهن بما هي نظريَّة قيد التشكُّل؛ إذ تُركّز على نماذج المعنى التي تنبثق من رواية القصص وسرديات صيغة المتكلّم لدى النساء والآخرين اللواتي يستنكرنَ الهيمنة المزدوجة على النساء والطبيعة.

هـ. النسويَّة الأيكولوجيَّة تنشأ من أصوات النساء اللواتي يختبرن الهيمنة المؤذية على الطبيعة والطريقة التي ترتبط بها تلك الهيمنة بالهيمنة عليهن بوصفهن نساء. ومن ثمّ فهي تنتقد المقاربات التقليديَّة للأخلاق البيئيَّة بما هي أخلاق برجوزايّة تخصّ العرق الأبيض وتخفق في التعامل مع القضايا الإيكولوجيّة التي تخصّ كلّ البيئات البشرية وغير البشرية.

و. النسويَّة الأيكولوجيَّة -بما هي كذلك- لا تبذل أيَّ محاولةٍ لتقديم وجهةِ نظرٍ موضوعيَّة، فهي أيكولوجيَّة اجتماعيَّة تُدرك أنَّ الهيمنة المزدوجة على النساء والطبيعة هي مشكلة اجتماعيَّة تضرب بجذورها في الظروف الملموسة جدًّا؛ التاريخيَّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، وكذلك في الأطر الجائرة التي تحافظ على هذه الظروف وتقرّها.

ز. تولي النسويَّة الأيكولوجيَّة مكانةً محوريَّةً لقِيَم الرعاية والحبّ والصداقة والثقة، والعلاقات المتبادلة التي تعني أنَّ علاقتنا مع الآخرين محوريَّة لفهم من نكون.

ح. تتضمَّن الأيكولوجيّة النسويَّة إعادة فهم لما يعنيه كوننا بشرًا، ونتائج ذلك على السلوك الأخلاقيّ. ومن هنا تُنكر النسويَّة الإيكولوجيَّة الفردانيَّة المجرّدة، وتُؤكِّد على أهمِّيَّة السياقات التاريخيَّة والاجتماعيَّة والعلاقات التي نكون بوصفنا بشرًا طرفًا فيها، بما في ذلك علاقتنا مع الطبيعة غير البشرية؛ لأنَّها تلعب دورًا جوهريًّا في صياغة ما هو بشريّ.

2 - سياقيَّة الأخلاق النسويَّة:

والخلاصة: إنَّ النسويَّة الأيكولوجيَّة تُقدِّم إطارًا لأخلاقٍ نسويَّةٍ وبيئيَّةٍ

متميِّزة، حيث تنبثق من الارتباط الملموس الذي تُنظِّر له بين الهيمنة على النساء والهيمنة على الطبيعة، وباعتبارها أخلاقًا سياقيَّة تُعيد النسويَّة الأيكولوجيَّة توجيه الأخلاق البيئيَّة لتركّز على ما تعنيه الطبيعة خلقيًّا للبشر وعلى كيفيَّة العلاقة بين البشر وبين الآخرين، سواء أكانوا من البشر أم من غير البشر. وليس أدلّ على هذا المعنى الذي تدعو إليها النسويَّة الأيكولوجيَّة من هذه القصَّة التي رواها شيخ إحدى القبائل الهنديَّة عن ابنه البالغ من العمر سبع سنوات حينما أرسله ليعيش مع جدّيه في إحدى المحميّات الطبيعيَّة ليتعلَّم منها «الأساليب الهنديَّة». ومن ضمن ما علمه الجدّان للابن، علّماه كيفيّة اصطياد ذوات الأربع، فقالا له:

«أطلِق السهم على أخيك ذي الأربع في ناصيته الخلفيَّة؛ بحيث تبطئه ولا تقتله. ثم خذ رأسه بيديك وانظر في عينيه، ففي العينين تكون المعاناة كلها. انظر إلى عيني أخيك واشعر بألمه، بعدها خذ سكينك واذبح ذا الأربع أسفل ذقنه، في عنقه بحيث يموت بسرعة. وبينما تقوم بذلك اسأل أخاك ذا الأربع أن يسامحك لما فعلته. أقم أيضًا صلاة الشكر لقريبك ذي الأربع؛ لأنَّه قدَّم جسده لك للتوّ لتأكل عندما تحتاج الطعام وتلبس حيث تحتاج الكساء. وعِدْ ذا الأربع بأنَّك سوف تدفن جسدك في الأرض عندما تموت ليصبح غذاءً للأرض وللزهور الشقيقة لك وللوعل أخيك. فمن اللائق أنَّك سوف تصلِّي مبارِكًا ذا الأربع. وبدورك وفى الوقت المناسب تردّ له التحية بجسدك بهذه الطريقة، فقد منحك ذو الأربع حياته كي تبقى..»[1].

إنَّ هذه القصَّة السرديَّة تبدو فيها قوّة الأخلاق البيئيّة ذات التوجّه النسويّ؛ فهي محمّلة بِقِيَمٍ ومواقفَ علائقيَّة كالرعاية والتفهّم المحبّ والتبادليّة الملائمة..الخ.

(1) نقلًا عن: وارين، قوَّة وقواعد النسويَّة الإيكولوجيَّة، م.س، ص117-118.

3 - بين الأخلاق النسويَّة وأخلاق الرعاية:

لعلَّ في هذه القضيَّة -أيضًا- ما يكشف عن الارتباط بين الأخلاق والنسويَّة الأيكولوجيَّة وبين ما يُسمّى بأخلاق الرعاية أو العناية، تلك الأخلاق التي ترفض المعايير المضادّة، تبنّي وتفسير المشكلات الأخلاقيَّة، وتُقدِّم تصوُّرًا جديدًا بحثًا عن صورٍ أكثر جدوى لتوجيه حياتنا الأخلاقيَّة بما يضمن التعاون والرعاية والعناية لمن يحتاجونها، رافضةً قِيَمَ العنف والسيطرة، إنَّها الأخلاق التي تتميَّزُ بتركيزها على العلاقات بين الأفراد والاعتناء بعضهم ببعض[1].

وقد بدت أخلاق العناية ذا التوجُّه النسويّ بوضوحٍ في كتاب كارول جليجان C. Gilligan بصوتٍ مختلف 1982 In different voice التي أكّدت فيه أنَّه بالإمكان إدراك صوت مختلف عند كثيرٍ من البنات والنساء في تفسير وتأويل المشكلات الأخلاقيَّة؛ حيث إنَّهن يُركِّزن اهتمامهنّ على السياقات التاريخيَّة والعلاقات الواقعيَّة بين الأشخاص. وقد تفاعل الفلاسفة النسويُّون مع هذه الرؤية لعالمة النفس الأمريكيَّة، حيث إنَّه يتجاوب مع عدم رضاهن عن النظريَّات الأخلاقيَّة السائدة[2]. وهذا التجاوب يكشف بالطبع عن أنَّ أخلاق العناية والرعاية يمكن أن تنسحب من عالم البشر والعلاقات الاجتماعيَّة فيما بينهم والاهتمام بطفلهم ومريضهم وكلّ من يحتاج للرعاية والعناية من بينهم، إلى عالم غير البشر، بل وإلى الطبيعة ذاتها؛ إذ إنّها هي الأخرى تحتاج لنظرةٍ فيها المزيد من العناية والرعاية، وبالتقليل من القهر والاستغلال السيِّء..الخ.

خامسًا: وقفة نقديَّة مع النسويَّة الإيكولوجيَّة من منظور الفلسفة الغربيَّة:

إنَّ الأيكولوجيَّة النسويَّة تتقاطع -هنا- مع دعاة أخلاق الرعاية والعناية،

(1) انظر: هيلد، فيرجينا: أخلاق العناية، ترجمة: ميشيل حنا متياس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2008م، العدد 356، ص7-8.

(2) هيلد، أخلاق العناية، م.س، ص40-41.

وكذلك مع دعاة الأيكولوجيا الاجتماعيَّة، ومع ذلك فإنَّ أقسى انتقاداتٍ وُجّهت للنسويَّة الأيكولوجيَّة كانت من قِبَل اثنين من أعلام الإيكولوجيا الاجتماعيَّة، هما: موراي بوكتشين[1]، وجانيت بيهل[2]؛ فقد رفضت الأخيرةُ النسويَّةَ الأيكولوجيَّة تقريبًا، واعتبرتها «شكلًا من اللاعقلانيَّة غير جديرة بالانتباه الجدّيّ، فجميع النسويِّين الأيكولوجيِّين تقريبًا يمجّدون المرأة كآخر إلى جانب الطبيعة غير البشريَّة، وذلك بتضخيم فجٍّ لأفكار سيمون دو بوفوار في عرضها الحاذق للموضوع[3]. وترى بيهل أنَّه «بدلًا من العمل على الاستعاضة عن فضائل دولة المدينة بتلك العائدة إلى الأويكوس Oikos (وهي اللفظة الأغريقيَّة التي اشتُقّت منها لفظة إيكولوجيّ) التي اضطهدتهن تاريخيًّا (وذلك وفق ما يظنّه النسويُّون الإيكولوجيُّون)، ينبغي على النساء في الحركات البيئيَّة الانغماس في العلم السياسيّ كجزءٍ من سياسةٍ تحرُّريَّة، والمطالبة بالمواطنيّة لأنفسهنّ، ينبغي عليهن في المدى

(1) موراي بوكتشين Murray Bookchin: كاتب وفيلسوف أمريكيّ لا سلطويّ، ولد في نيويورك من عائلة روسيَّة يهوديَّة في 14 كانون الثاني 1920م وتوفي في 30 تموز 2006م، له حوالي 24 كتابًا في الفلسفة والسياسة والتاريخ والتنبّؤ والقضايا المدنيَّة، والفلسفة الطبيَّة. وهو مؤسِّس مشارك ومدير فخريّ لمعهد الإيكولوجيا الاجتماعيَّة، من أهمّ مؤلَّفاته:

- من التمدّن إلى المدن أو نهوض التمدّن وسقوط المواطنة
- The Rise of Urbanization and the Decline of Citizenship
- اللاسلطويَّة الاجتماعيَّة أو اللاسلطويَّة الحياتيَّة
- نحو الأيكولوجيا الاجتماعيَّة Toward and Ecological Society
- أيكولوجيا الحرِّيَّة The Ecology of Freedom
- فلسفة الأيكولوجيا الاجتماعيَّة The Philosophy of Social Ecology
- إعادة صناعة المجتمع Remaking Society

(انظر: موراي بوكتشين Wikipedia.org/wiki؛ وانظر أيضًا: زيمرمان: الفلسفة البيئيَّة، م.س، ص358).

(2) جانيت بيهل Janet Biehl: هي إحدى فيلسوفات البيئة الأمريكيَّة، اشتهرت بالانتماء والكتابة فى الأيكولوجيا الاجتماعيَّة، ولدت عام 1953م، قدَّمت بعض أعمالها بالاشتراك مع موراى بوكشتين، أمَّا أهمّ مؤلَّفاتها الخاصَّة فهى:

- وجدنا طريقنا: إعادة التفكير في الأيكولوجيَّة النسويَّة السياسيَّة.
- (Finding our way: Rethinking Ecofeminist politics (1991
- الفاشيَّة البيئيَّة - دروس من التجربة الألمانيَّة.
- (Ecofascism: Lessons from the German experience (1996.
- سياسات الأيكولوجيا الاجتماعيَّة. (The politics of social ecology (1997

(3) نقلًا عن: زيمرمان، الفلسفة البيئيَّة، م.س، ص268-269.

الطويل الخروج من الأويكوس -سواء بالمعنى الحرفيّ الذي يشير إلى منزل الأسرة أم بالمعنى المجازيّ الذى يشير إلى قيم النساء- والعمل على توسيع المجال الكامل لقدراتهنّ البشريَّة[1].

كما تنتقد بيهل -أيضًا- مفهوم الرعاية النسويّ قائلةً إنَّه يمكن توسيعه من نطاقه المحدّد المناسب الذى تراه شاملًا العلاقات الشخصيَّة الحميمة إلى المجال الأوسع للأخلاق الاجتماعيَّة والسياسيَّة.

وقد اتَّهمت بيهل ويورى بوركشتين معًا النسويِّين الأيكولجيِّين بأنَّهن أضعفن الذات واختزلنها إلى الذات المتلقِّية المنفعلة القابلة للتلاعب بها، وأكّدا على أنَّ الذات الفرديَّة «المزيّفة» الذكوريَّة للمواطن، وكذلك الرعاية بمضامينها المسهبة العاطفيَّة والشخصيَّة جدًّا ستتحوّلان عبر المداولة والمناظرة في الجمعيَّة إلى نواة فكرة المواطنيَّة، ومن وجهة نظرهما لا مناصّ -طبقًا لذلك- من طرد الرعاية خارج مجال القِيَم السياسيَّة العقلانيَّة المتّسقة ذات المعنى[2].

وبكلمات بيهل الخاصَّة، فإنَّ «عاطفة الرعاية ليست شيئًا يمكن للمرء منحه بشكل أصيل إلى الناس كافّة، كما لا يمكن للرعاية كعاطفة أن تعمّ وتعدّ أساسًا للتنظيم الاجتماعيّ خارج الجماعات الصغيرة الخاصّة بالمرء استنادًا إلى القرابة»[3]، ومن ثمّ فإنَّه بالنسبة إليها: «إنّ فكرة الرعاية بالنسبة للنظام الاجتماعيّ العامّ أو السياسيّ تبدو فكرةً مضحكةً تمامًا؛ إذ إنَّ نوع الرعاية الذي تشعر به الأم أو الأب إزاء الطفل لا يمكن تعميمه، بصرف النظر عن التغاضي -في ما يتعلّق بفلسفة البيئة- عمَّا إذا كان المرء يفكّر كالجبل أو يسمح لنفسه بأن يكون شجرة»[4].

(1) زيمرمان، الفلسفة البيئيَّة، م.س، ص269.
(2) نقلًا عن: زيمرمان، الفلسفة البيئيَّة، م.س، ص270.
(3) نقلًا عن: م.ن، ص.ن.
(4) نقلًا عن: م.ن، ص.ن.

وتستخلص بيهل من ذلك أنَّ مصطلح النسويَّة الأيكولوجيَّة قد أصبح مشوبًا باللاعقلانيَّة، وأنَّها لا تستطيع أن تعتبره مشروعًا واعدًا؛ إذ يصعب بناء حركةٍ استنادًا إلى مجازاتٍ مرفوضةٍ وعلى أفكارٍ مشوشةٍ لا يمكن صياغتها في أسلوب متّسق[1].

والحقيقة أنَّه يمكن من وجهة نظر النسويَّة الأيكولوجيَّة ومناصريها القول -على حدٍّ تعبير جون كلارك[2]- إنَّ المنظّرين النسويِّين الأيكولوجيِّين قد تفادوا نظريًّا هذه اللاعقلانيَّة التي تشير إليها بيهل، بل إنَّهم قدَّموا أفكارًا جوهريَّة مهمَّة في المجالات ذاتها التي تكون فيها أفكار الأيكولوجيِّين الاجتماعيِّين مثل بوكشتين وبيهل شاحبةً جدًا[3].

وبوجهٍ عامّ فإنَّ النسويَّة الأيكولوجيَّة قدَّمت لنا السبب الوجيه الموجِب لأن نتوجَّه بآمالنا إلى عالم الحياة والثقافة الكثيف والملغّز والمعقَّد الذي يعيش الناس فيه، وليس إلى مجرَّد عالم أثيريّ لأيدولوجيا سياسيَّة مثاليَّة. إنَّ السياسة النسويَّة الإيكولوجيَّة في الرعاية تعيننا على الاحتفاظ بمثلنا لصيقة بماديَّة الحرِّيَّة، كما تتجسَّد في التفاعلات الواقعيَّة بين الكائنات البشريَّة الحيَّة والمجتمعات الحيَّة والأرض الحيَّة[4]. إنَّ الأيكولوجيَّة النسويَّة من بدايتها إلى نهايتها تعدّ تعبيرًا عن رؤية الجنس الآخر للحياة على وجه الأرض، وهي رؤية تتميَّز بالاختلاف مع النظرة الذكوريَّة السائدة التي كانت دائمًا رؤية كتبها وعبّر عنها رجال. وعلى كلِّ حال فإنَّ تلك الرؤية الأنثويَّة لاتزال تصارع من أجل البقاء في مواجهة الصوت العالي للأيكولوجيِّين الرجال.

(1) كلارك، جون: «قضيَّة الحرِّيَّة: دروس نسويَّة أيكولوجيَّة للأيكولجيا الاجتماعيَّة»، ضمن كتاب: زيمرمان، الفلسفة البيئيَّة، م.س، ص270.

(2) جون كلارك Johan Clark: أستاذ الفلسفة في جامعة ليولا-نيو أورليانز، ويرأس حاليًّا برنامج مركز الدراسات البيئيَّة، وقد نشط لمدَّة طويلة فى الحركات الخضراء والحركة الإقليميَّة الحيويَّة، ومن كتبه:

- The Anarchist moment: reflection an culture, Nature, and power.
- Liberty, Ecology, Geography: The Social Thought of Elisse Reculus.

(انظر: زيمرمان، الفلسفة البيئيَّة، م.س، ص358).

(3) زيمرمان، الفلسفة البيئيَّة، م.س، ص270.

(4) م.ن، ص282.

سادسًا: وقفة نقديَّة مع فلاسفة الأيكولوجيا الغربيَّة من منظور الوسطيَّة الإسلاميَّة:

والحقيقة أنَّ الفلسفات البيئيَّة الغربيَّة إجمالًا يمكن أن تستفيد من الوسطيَّة الماثلة في الدين (الإسلام) والفقه الإسلاميّ بدرجةٍ لافتةٍ للنظر، بحيث يمكن أن تنبثق عنها فلسفة وسطيَّة يسهل أن تتحوّل إلى تلك السياسات والخطط الاستراتيجيَّة الكفيلة بالقضاء على كثيرٍ من المشكلات البيئيَّة. وقد أجمل أحد الباحثين الخطوط العريضة لهذه الفلسفة البيئيَّة القرآنيَّة-الإسلاميَّة في نقاطٍ عدَّة، أهمّها[1]:

1. إنَّ الرؤية الكلِّيَّة للنظريَّة البيئيَّة في العقيدة الإسلاميَّة ترى في الإنسان سيِّدًا في الكون ومستخلَفًا فيه، ومع ذلك فهي لا تميل إلى المركزيَّة البشريَّة التي يستنزف فيها الإنسان الطبيعة، ولا هي كذلك تمثِّل مركزيَّةً للطبيعة بحيث تساوي بين الإنسان والمادَّة والإنسان والحيوان وتتجاهل خالق الكون ورسالة البشر وأمانتهم المسؤولة في الدنيا والآخرة.
2. إنَّ الاستدامة في الأخلاقيَّات البيئيَّة موجودة في الفقه الإسلاميّ، وهي تدخل في إطار نظريَّة المقاصد في العدل كمقصد حفظ المال، ومراتب هذا الحفظ؛ من حفظ بقاء، لحفظ أداء، لحفظ نماء. والقيم الأخلاقيَّة لا تقتصر في الشريعة الإسلاميَّة على المسؤوليَّة تجاه الأجيال الحاضرة والمستقبليَّة، بل المسؤوليَّة أمام الله بالأساس عن الموارد والكائنات منذ التوجيه النبويّ بعدم الإسراف في الماء ولو بغرض الوضوء، مرورًا بالرحمة الواجبة بالحيوانات، فالتواصل مع كلِّ مكوّنات الكون النباتيَّة، بل والجمادات التي يؤمن الإنسان المسلم بأنَّها تُسبِّح لله، ويحكم

(1) عبد الشافي، عصام محمَّد: «البيئة وأخلاقيَّاتها بين الشرائع السماويَّة والتيَّارات الفلسفيَّة»، الشبكة العربيَّة العالميَّة www.global arab network.2011، ص13-14.

الإنسان في كلِّ موقفٍ ميزان الضرر والنفع في الحال والمآل، والأمَّة تُوفِّر لسياسات البيئة التمويل اللازم عبر الأوقاف، وتضمن الالتزام بالقواعد والنظم والقانون، وتهتمّ أكثر من ذلك بإدماج هذه الأمور في السلوكيَّات والآداب اليوميَّة العباديَّة الفرديَّة والجماعيَّة.

3. في مقابل الرؤية الأيدولوجيَّة لفلسفة البيئة وأخلاقيَّاتها كدائرةٍ حيويَّة، يجعلها الإسلام أمانةً في عنق الإنسان ويتعامل معها بمنطق العمارة في الأرض. والإنسان في الإسلام ينبغي أن يحمل قِيَمًا ربَّانيَّة ويستوي في حملها الرجال والنساء؛ فليست المرأة أقرب للطبيعة من الرجل - كما يدّعي النسويُّون الأيكولوجيُّون- ولا هو أكثر إفسادًا للطبيعة من النساء، بل إنَّ المعيار هنا للتقوى والالتزام بالعدل والقسط والرحمة، وكلّها صفات للمؤمن، سواء أكان رجلًا أم امرأة؛ إذ ليست هذه الصفات صفات نسويَّة، بل هي صفات عامّة ينبغي أن يتحلّى بها كلّ المؤمنين بالإسلام دينًا وشريعة.

4. إنَّ التعاليم الإسلاميَّة قد حدّدت للإنسان المؤمن بالإسلام منهجًا محدّدًا يتّسم بالعلميَّة والتكامل في الوقت ذاته للتعامل مع مكوّنات البيئة الطبيعيَّة، وهذا المنهج يبدأ بالحضّ على الانتفاع بالبيئة مادِّيًّا وروحيًّا، بحيث لا يجور الأوَّل على الثاني فيكون العداء والمغالبة، ولا يجور فيه الثاني على الأوَّل فيكون الانزواء، وإنَّما ينخرط في الدورة البيئيَّة الكبرى، ملتزمًا بما قدّر له فيها من مهمَّةٍ في الحياة، وملتزمًا أيضًا بما قُدّر له منها من مقدّرات تُمكِّنه من أداء تلك المهمَّة. وهذا المنهج يكتمل حينما يدعو الإنسان إلى الرفق بالبيئة خلال استنفاعه بها، رفقًا يجعله ملتزمًا بصيانة مقدّراتها، وذلك بتنميتها أوَّلًا، وبحفظها من التلف والتلوُّث ثانيًا، كما يلتزم ثالثًا بالاقتصاد في استهلاك مواردها المتجدّدة والناضبة على حدٍّ سواء.

5. إنَّ هذه الفلسفة البيئيَّة الإسلاميَّة تتكامل فيها الرؤية الثقافيَّة العامَّة لحقيقة البيئة وعلاقتها بالإنسان وعلاقة الإنسان بها مع الفقه البيئيّ العمليّ في بيان كيفيَّة التعامل الفعليّ مع البيئة. وهذا التكامل بين النظر والعمل في الفلسفة البيئيَّة الإسلاميَّة بهذا التوجُّه الوسطيّ ليس إطارًا مجرَّدًا، بل كما هو حال صانعي الحضارة الإسلاميَّة في عصرها الزاهي، وهو حصاد تجربةٍ عاشها المسلمون بالفعل على أرض الواقع.

خاتمة:

لعلّ السؤال الذي يُطرح بعد كلّ ما تقدَّم: أين نحن المسلمين المعاصرين من هذه الرؤية التي اقترن فيها النظر بالعمل، وارتبط فيها القول بالفعل، والفكرة بالتنفيذ، فكانت عبقريَّة الحضارة الإسلاميَّة وأساس السيادة للمسلمين؟! أين نحن من كلِّ ذلك؟ وأين فلاسفة البيئة المعاصرين من هذه الرؤية الإسلاميَّة؟ ولماذا لا يستفيدون منها؟! أسئلةٌ حائرةٌ تبحث عن إجابةٍ ربما تتكشّف في الأيام والسنين القادمة. فقضايا البيئة المعاصرة لا يمكن التعامل معها بهذا التطرُّف السائد، سواء من جهة اليمين أم من جهة اليسار، من جهة فلاسفة البيئة الذكور أو من جهة فلاسفتها الإناث، بل ينبغي أن يكون بهذه الطريقة الوسطية التي لا تُلغي تميُّز الإنسان برجاله وإناثه ولا تتجنّب بالتالي حقوق الكائنات الأخرى وحقّ الأرض والطبيعة.